مصير أهل النّار عند صدر الدين الشيرازيّ وعرض مذهبه في انقلاب العذاب راحة وعذوبة

دراسة عرض وتحليل لرأي الفيلسوف ملا صدرا في كتابه
"الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة"

د. جاد الله بسام

رمضان، ١٤٤١هـ
أيار، ٢٠٢٠م

الموضوع	الصفحة
[مقدمة وتمهيد]	
[المبحث الأول]: الجنة والنار صور إدراكية وليستا مستقلتين عن الدنيا	
الفرق بين الجنة والنار عند الملا صدرا	
النار وقاية من غضب الله تعالى	
[المبحث الثاني]: أقسام أهل العذاب في النار وانقلاب ألمهم راحة وعذابها عذوبة	
[تلخيص]	
[المبحث الثالث]: محلّ الآلام لأهل العذاب في النار	
[المبحث الرابع]: الأصل الفلسفي لتفسير الحكماء وبعض الصوفية لخلود أهل النار في العذاب	
[المبحث الخامس]: تعليل انقطاع العذاب والألم وانقلابه راحة بعلة شمول الرحمة الإلهية وغيرها من التعليلات الفلسفية	
[ملخص هامّ: كيفية تحقق اللذة في العذاب]	
[المبحث السادس]: عَرْض نصّ أورده صدرا في رسالة الحكمة العرشية	
[خاتمة]	

[مقدمة وتمهيد]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنّ مذهب أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم من علماء الإسلام من الفقهاء والمفسرين والمحدثين وغيرهم لا زال قائماً على تقرير العقائد الإسلامية الموافقة المأخوذة من الكتاب والسنة، ولا زال صالحاً للردّ على كل مخالفة للحق المأخوذ من الكتاب والسنة، وهذا هو دأب علماء الشريعة على مرّ الدهور وطول العصور، ولا يبالون في تقرير العقائد الإسلامية ودفع الشبه عنها بأحدٍ من المخالفين، كائناً من كان، مع حفظ القدر العلمي لكلّ أحد من المخالفين، وبدون التنقيص منهم أو الخوض في شؤون غير متعلقة بالعلم.

ومن علامات إنصاف أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية أنهم يخالفون الفلاسفة في مسائل كبيرة جداً، ومع ذلك يسمون ابن سينا بالشيخ الرئيس، والفارابي بالمعلم الثاني، والنصير الطوسي بالمحقق، بل لم يغيروا شيئاً في لقب أرسطو بالمعلم الأول، ويسمون كل أحد باسمه ولقبه، وفي الوقت نفسه لا يغترون بمجرد هذه الألقاب، بل يحاسبون كل أحدٍ بمقتضى قانون العلم.

وهذا هو ديدن العلماء من أهل السنة والجماعة في كل مسألة علمية، كلامية كانت أو فقهية، أصلية أو فرعية، حتى إننا نجد في داخل مذهب أهل السنة والجماعة انتقادات علمية قد تتوجّه من أكابرهم على أكابرهم، فها هم أولاء ينقدون مثل الإمام الأشعري ويخالفون في مسائله مع أنه شيخ المذهب بلا نزاع، وينتقدون الجويني والغزالي والرازي والبيضاوي والحليمي والإسفراييني، وهكذا بدون إخلال بمراتب العلماء ولا تجاوز لقانون العلم، ولم نجد خلافاً حاداً بين هؤلاء العلماء يقتضي تكفيراً أو تبديعاً أو تفسيقاً أو إخراجاً من دائرة أهل السنة والجماعة، لأن المسائل التي اختلفوا فيها إما أن تكون خلافات لفظية، أو فرعية، أو أنها احتمالات متعددة يمكن بناؤها على أصول مذهب أهل السنة والجماعة.

وكل هذه الخلافات تدور بروح العلم، بحيث لا يتجاوز فيه أحد قانون العلم، ولعل هذا من أهمّ مميزات مذهب أهل السنة والجماعة، حيث يقال للمخطئ في مسألة ما إنه مخطئ مع بيان وجه خطئه ودليل ذلك، بحيث تكون التخطئة والتصوبة من قبيل النصيحة العلمية التي تعين المسلمين في دار التكليف على النجاة يوم القيامة والتعاون في شؤون إقامة ميزان الحق في الدنيا، ومن أهم مميزات أهل السنة والجماعة أيضاً كما ذكره علماؤنا أنهم لا تكثر بينهم الخلافات الحقيقية في المسائل الأصلية، كالمسألة التي بين يدي هذا البحث.

ونحن نجد أمثال هذه النصائح العلمية في كل مجال، حتى في مجال التصوف عند أهل السنة والجماعة، فها هو الإمام القشيري يرسل رسالته القشيرية نصيحة لأهل التصوف في الآفاق

بعد أن رأى من بعضهم بعض وجوه الخلل، وها هم المتكلمون يقررون مسائل في التصوف في كتبهم الكلامية، على رأسها حجية الكشف ومصدريته في المعرفة، وتنتهي بحوثهم إلى أن الكشف ليس حجة علمية مطردة بحسب قانون العلم، وأن كشف كل إنسان ينبغي أن يكون غير مخالف للشريعة الإسلامية ومقررات أهل السنة والجماعة المأخوذة من الكتاب والسنة والإجماع والأدلة المعتبرة.

لكننا مع وضوح هذه المسالك العلمية واستقرارها وشيوعها وذيوعها؛ وجدنا بعض أهل التصوف من المتقدمين أو المعاصرين يجعلون مذهب أهل السنة والجماعة وراءهم ظهرياً، ويحتجون على مخالفتهم لأهل السنة بالكشف والإلهام تارة، ويقولون إنّ كلامهم يجري على اصطلاحهم الخاصّ فلا يطلع عليه غيرهم، مع أنه اصطلاح مشهور معروف مقرّر علمياً، وجعلوا لأنفسهم مكانة ليست لسواهم، مع أنّ الذي خالفوا فيه عند التأمل راجع إلى أصول معقولة المعنى مضبوطة المبنى، ولعلهم مسبوقون فيها بمذاهب فلسفية قديمة ظهر خطؤها بالأدلة المناسبة.

ومن جملة المسائل المثارة قديماً وحديثاً مسألة مصير أصحاب النار، وهي مسألة تعدّ من البحوث الفلسفية المتعلقة بأبواب كثير من العلم، منها مشكلة الشرّ ومسائل الحكمة الإلهية والعدل الإلهي، وهي تهمّ كل باحث، بل قد يهتمّ بها كل إنسان من حيث إنها تتناول مصيره المحتوم، ومما يتعلّق بهذه المسألة خلود أهل النار في النار، وهل يؤول عذابهم إلى انقطاع، أو ينقلب عذوبة، وهل النار باقية أو فانية؟ إلى غير ذلك من المسائل المتعلقة بذلك.

وقد نسب القول بانقطاع عذاب أهل النار إلى بعض المفكرين والفلاسفة والباحثين، بناء على أصول فكرية معينة يرونها، فممن نسب إليهم هذا القول ابن تيمية في قوله بفناء النار، وابن عربي في قوله بانقلاب العذاب عذوبة، وكثير من شراحه وأصحاب مدرسته، ومنهم عبد الكريم الجيلي، وتابعهم من تابعهم إما تصريحاً أو تأويلاً، وصدر الدين الشيرازي (المتوفى ١٠٥٠هـ) تأثر خاصّة بابن عربي ومدرسته، كما سيظهر في بحثنا هذا، هذا علاوة على كثير من المعاصرين، مع أنّ هذا القول مخالف لصريح الشريعة التي أنزلها الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد بيّن الشعراني في سابق الزمان أنّ بعض الناس يعتقدون هذه العقيدة، لكن على وجه الخفية بدون تصريح بذلك، خوفاً منهم أن ينسبوا إلى مخالفة الكتاب والسنة ومذهب أهل السنة والجماعة في ذلك، وقد احتجنا في هذا الزمان أيضاً إلى بيان وجه الحقّ في هذه المسألة لما رأينا بعض الناس في زماننا يقولون بهذا القول، ظناً منهم أنهم يحلّون مشكلة فلسفية باختيار ما يخالف مذهب أهل السنة والجماعة.

لكن لما كان بيان وجه الصواب في هذه المسألة يأخذ حساسية زائدة عند بعض أهل التصوف الذين يعدّون الشيخ ابن عربي رأس العارفين وإمامهم بدون منازع، حتى إنهم رفعوه فوق النقد، زاعمين تارة أن كشفه دليل معتبر، ومدعين تارة أن قوله لا يخالف أهل السنة والجماعة وأنه

يمكن إرجاعه إلى مذهبهم، وتارة يقولون بأنه مدسوس، أو أن معناه لا يفهم إلا بالكشف والذوق... الخ، أقول:

لما كان هذا البحث محفوفاً بتلك الحساسية الزائدة وغير السائغة؛ رأيت أن أطرق الموضوع من زاوية ربما لا تثير حفيظة أهل التصوف المحسوبين على أهل السنة والجماعة، فإننا نشعر بأن لهم علينا حقّ النصح العلمي، فجعلت بحثي هذا نصيحة لهم، وبياناً لما يجب عليّ من البيان، بكل هدوء وتؤدة، منزهاً أهل التصوف السني الحقيقي أن يقولوا بأيّ قول مخالف للكتاب والسنة وفق مقررات أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية، باعتبار أنّ مذهبهم هو المعوّل عليه في ذلك، وهو الحاكم في مثل هذه الشؤون الاعتقادية تبعاً للأدلة اليقينية المعتبرة.

وقد اخترت في هذا البحث أنْ أدرس مسألة عذاب أهل النار ومصيرهم في مذهب صدر الدين الشيرازي دراسة تحليل وعرض، وانقلابه إلى عذوبة وراحة، وذلك من خلال كتابه الأبرز والأشهر الموسوم بالحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، مقتصراً في عرض رأي الملا صدرا من خلال هذا الكتاب خاصة، ليكون ذلك باباً لطرق هذه المسألة في تراث الملا صدرا عموماً في بحوث أخرى، وقد أعرج على رسالة الحكمة العرشية لغرض خاصّ سأبينه في المبحث السادس من هذا البحث الوجيز.

وصدر الدين الشيرازي هو فيلسوف كبير من الفلاسفة القائلين بوحدة الوجود المنتسبين إلى مذهب الشيعة، وهو معدود من كبار رجالات الاتجاه الفلسفي العقلي عندهم، ومشهور بلقب "الملا صدرا".

وقد اعتمدت في توثيق نصوص هذا البحث المنقولة عن الملا صدرا على كتابه الموسوم بـ: «الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة»، وهو كما كتب على غلافه: "تأليف الحكيم الإلهي والفيلسوف الرباني صدر الدين محمد الشيرازي مجدّد الفلسفة الإسلامية (ت١٠٥٠هـ)، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة: ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

وأودّ أن أسترعي انتباه القراء الكرام أن كون "عالِمٍ ما" محسوباً على مذهب معين، لا يقتضي أنه يوافق ذلك المذهب تماماً، ومن ثمّ فلا يجب عرفاً ولا عقلاً ولا شرعاً على أهل ذلك المذهب أو الباحثين فيه أن يعتقدوا أنه موافق لكلّ قول في ذلك المذهب، خصوصاً إذا صرح بمخالفته في بعض المسائل لمقرراته، ومثالنا على ذلك الملا صدرا في مسألتنا هذه، فإنّ علماء الشيعة في الغالب يقولون كأهل السنة بأنّ عذاب أهل النار دائم سرمديّ حسيّ ونفسيّ يسبب آلاماً وآلاماً لا راحة فيها ولا معها ولا بعدها، ويعتقدون أن ذلك من قطعيات الدين إن لم يكن من ضرورياته أيضاً.

وأسجل هنا مثالاً علمياً موضوعياً في كيفية تعامل بعض علماء الشيعة وفلاسفتهم مع الملا صدرا في تقريره لتلك المسألة وغيرها من المسائل، وهو موقف علمي موضوعي يحافظ على

مكانة العلماء ويحافظ على قوانين العلم في وقت واحد.

يقول الناشر محمد خواجوي لكتاب الحكمة المتعالية في كلمة النشر: "هذا ومما كان لا بد من التنبيه عليه هو أن هذا الكتاب الذي بين يدي قارئه الكريم بالرغم من غزارة مادته وبلوغه الغاية القصوى في تحليل أدقّ النظريات العلمية وتطبيق بعضها مع بعض، والجمع بين كثير من الآراء التي كانت يعتقد فيها أشد مراحل الخلاف، والتي كانت على طرفي النقيض حسب ما نظر إليه المتقدمون، وما بذله المؤلّف في التوفيق بين تلك النظريات وما تقتضيه الأصول الإسلامية، والشرائع السماوية بصورة عامة. بالرغم من كل ذلك لا يوجد هناك كتاب علمي كموسوعتنا هذه وغيره من الكتب الفلسفية، ولا آراء علمية، ولا نظرية عقلية تكاد تسلم من النفي والإثبات، والنقض والإبرام، والقول بصحتها من بعض وفسادها من الآخرين. ومن هنا يظهر أن التطبيقات التي أتعب بها نفسه فيلسوفنا وغيره من الفلاسفة الإسلاميين كابن رشد وابن سينا ونصير الدين الطوسي بين المبادئ الإسلامية والقواعد الفلسفية فإنما هي آراء علمية ونظريات شخصية لا مساس لها بجوهر الدين والأصول الاعتقادية المفروضة للمسلمين التمسك بها وعقد القلب عليها".

إذن؛ هنا تمييز واضح بين ما يجب اعتقاده مما هو مقرر في الدين وبين الاجتهادات التي يقول بها بعض العلماء والفلاسفة مهما بلغت منزلتهم، وهو موقف حسن، قد لا نجده عند بعض المتعصبين بغير وجه حق للشيخ ابن عربي، حيث يجعلون أقواله الصريحة في معناها الظاهرة في مخالفة الكتاب والسنة مفروضة على الناس بحجة الكشف، حراماً نقدها بحجة احترام الأولياء.

وفوق كلمة الناشر هذه، تشير تعليقات بعض المحشين لكتاب «الحكمة المتعالية»، كالحكيم الشيعي ملا هادي السبزواري، ومحشي شرح منظومته المدرس الزنجاني، وغيرهم أيضاً ممن سيأتي ذكرهم في البحث، إلى مخالفتهم للملا صدرا في مسائل وتصريحهم بخطئه فيها، مع ما لنا من ملحوظات على ذلك، ليس محل بيانها هنا.

فانظر كيف ينبغي الفصل بين جهود العلماء وما هو مقرر من العقائد الحقة في نفس الأمر، ولئن كان علماء الشيعة حريصين على ذلك، فهل يجوز لعلماء أهل السنة أن يكونوا أقل شأناً منهم في ذلك الحرص؟!

لا، وربّ الكعبة المشرفة، بل نحن أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم في العقائد تبع للكتاب والسنة على وفق ما انعقد من إجماعات هذه الأمة، وعلى وفق المعلوم من الدين بالضرورة، وهو ما استقرّ عليه مذهب أهل السنة، ولا نتبع غير ذلك من شذوذات الأفكار، أو خطأ الأنظار، كائناً من كان صاحبها، حتى لو نسبت إلى أعظم العلماء، فإنّ الله تعالى أعظم من كل عظيم، ورسوله أحقّ بالاتباع من كل فخيم، وليس من معصوم سوى الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم، وهذه عقيدة واضحة في مذهب أهل السنة والجماعة، والحمد لله.

وإذا تبين ما سبق؛ فهل نحتاج الآن أن نقول: إنه ليس لنا غاية من هذا البحث إلا تجلية

مسألة مهمة من مسائل أصول الدين، مع بيان وجوه التأثر بها والتأثير فيها، وامتدادها عند فلاسفة العرفان ابتداء بابن عربي وليس انتهاء بالملا صدرا، وهل نحتاج أن نقول: إننا لسنا ضد الأولياء أو أهل التصوف، وهل نحتاج إلى القول: إننا لا نريد التهوين من شأن أحد من الناس، خصوصاً المعروفين منهم بالعلم وسعة الاطلاع والتفنن في المذاهب كابن عربي وصدرا.

ونحن إذ نقدم هذا البحث وفق هذه الغايات، ندعو الله تعالى أن يرزقنا بما نجتهد من إظهار الحقّ وتأييد مذهب أهل السنة والجماعة جناتِ النعيم، وأن ينجينا من نار الجحيم، وأن يجعل عملنا هذا مقبولاً عنده سبحانه وتعالى، وأن يرزقنا به حسن الختام والتأييد التامّ.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم آمين.

د. جاد الله بسام

عمان المحروسة في رمضان المبارك ١٤٤١هـ

[المبحث الأول]

الجنة والنار صور إدراكية وليستا مستقلتين عن الدنيا

اعتمد ملا صدرا في تقرير معنى الجنة والنار على نحوٍ من التفكير الفلسفي المبني على قواعد الإيجاب الذاتي[(١)] المخلوط بفلسفة وحدة الوجود، كما أبان عنها ابن عربي صاحب «الفتوحات» وغيره من أرباب مدرسته، وتجشّم توضيح ذلك في أكثر من كتاب، منها المبدأ والمعاد والحكمة المتعالية، ولا شكّ في تأثره بمدرسة الفتوحات، وأنه له مزيد تدقيقات وأنظار تخصّه هو، مع ما يضاف إلى ذلك من دعوى الكشف والذوق وتلقٍ من حضرة القدس.

وخلاصة ما يراه الملا صدرا في هذا المجال أنّ الجنة والنار أمور جسمانية محسوسة، لكن لا على ما يتبادر من معنى الحسّ الظاهر، بل هي محسوسة عنده على معنى آخر، وهو أنها صور موهومة قائمة في القوّة المتخيلة.

وبعبارةٍ أوضح: الجنة والنار عنده هي أشبه بما يراه النائم منّا حالة نومه من الصور والمدركات مما قد يلمسه ويشمه ويذوقه ويراه بعينيه في المنام، وليس معنى ذلك أنها غير حقيقية عند الملا صدرا، بل هي من وجهة نظره أشدّ حقيقة مما يتوهمه "علماء الرسوم"[(٢)]، على حدّ تعبيره، فإنّ الحقيقة عنده ليست في هذه العوالم المحسوسة، بل هي فيما وراء الحسّ، مما قد يُظن أنه خيال وليس بخيال، بل هو عين الحقيقة في الواقع، كما يراه أصحاب هذه الأفكار، ويعزونها بحسب دعواهم إلى الذوق والكشف والشهود الحقّ التي هي بمعزل عندهم عن الأدلة والنظر العقلي.

وننقل نحن هنا ما يوضح نظرته هذه من كلامه، **قال صدرا:** "فتحقق وتبين من جميع ما ذكرناه ونقلناه[(٣)] أنّ الجنة الجسمانية عبارة عن الصور الإدراكية القائمة بالنفس الخيالية مما تشتهيها النفس وتستلذها، ولا مادة ولا مظهر لها إلا النفس، وكذا فاعلها وموجدها القريب، وهو هي لا غير،

---

(١) كقوله في معنى الصدور الذاتي عن الواجب في أثناء الكلام على معنى الجنة: "وقد مرّ سابقا أنّ مشيئة العبد في الجنة عين مشيئة الحقّ تعالى، ووجه ذلك أنّ جميع الأشياء صادرة عن الواجب تعالى على الوجه الأتم والنظام الأحسن والخير الأعلى"، انظر: صدرا، محمد بن إبراهيم (ت١٠٥٠هـ)، **صدرا، الحكمة المتعالية:** ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٠م: ج٩، ص٣٤٣.

(٢) نقل الملا صدرا صاحب الحكمة المتعالية: ج٩، ص٣٤١، النص الآتي: "وهذا باب واسع المجال، وهو عند علماء الرسوم غير معتبر، ولا عند الحكماء الذين يزعمون أنهم قد علموا الحكمة، وقد نقصهم علم شموخ هذه المرتبة على سائر المراتب، ولا قدر لها عندهم، فلا يعرف قدرها ولا قوة سلطانها إلا الله، ثمّ أهله من نبيّ أو ولي، والعلم بها أوّل مقامات النبوة"، وهذا النصّ لصاحب «الفتوحات المكية»، فانظره إن شئت هناك في الباب الحادي والثمانين بعد الثلاثمئة.

(٣) يشير الملا صدرا هنا إلى كلام الشيخ ابن عربي في الباب الحادي والثمانين وثلاثمئة من الفتوحات.

وأنّ النفس الواحدة من النفوس الإنسانية مع ما تتصوّره وتدركه من الصور بمنزلة عالم عظيم نفسانيّ أعظم من هذا العالم الجسماني بما فيه، وأن كل ما يوجد فيها من الأشجار والأنهار والأبنية والغرفات كلها حية بحياة ذاتية، وحياتها كلها حياة واحدة هي حياة النفس التي تدركها وتوجدها، وأن إدراكها للصور هو بعينه إيجادها لها، لا أنها أدركتها فأوجدتها أو أوجدتها فأدركتها، كما في أفعال المختارين منا في هذا العالم، حيث إنا نتخيل شيئاً ملائماً كالحركة أو الكتابة أولاً، فنفعله ثانياً، ثم نتخيله بعدما فعلناه، بل أدركتها موجودة وأوجدتها مدركة، بلا تقدم وتأخر ولا مغايرة، إذ الفعل والإدراك هنا شيء واحد"(٤).

وأما فيما يتعلق بالنار التي هي محل بحثنا؛ فالأمر قريب مما سبق في معنى الجنة، لكن مع وجود فرق ما، وذلك أنّ النار عنده مشوبة ببنية العالم السفليّ الذي هو عالم الكون والفساد المتكدّر بعلائق الدنيا وشهواتها وملذاتها الحسية، بل هي كأنها هذا العالم، لكن في نشأة أخرى، ومن شأن تلك النشأة أن تجعل الدنيا ناراً وجهنم لأصحاب المعاصي والآثام من الأشقياء، وإن لم تكن في نشأتنا الدنيا ناراً وجهنم لانحجاب أنظارنا دون مستوى الحقيقة.

قال صدرا: "وأما دار جهنم فهي ليست كذلك، لأنها ليست داراً روحانية خالصة، بل هي مكدرة مشوبة بهذا العالم، فكأنها هي هذا العالم انساق إلى الآخرة بسائق القهرمان وزمام التسخير، فالجهنميّ يريد ما لا يجده، ويشتهي ما يضرّه، ويفعل ما يكرهه، ويختار ما يعذبه، ويهرب عما يصحبه، قائلاً كما حكى الله عنه: {يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ}، وجميع مشتهياته ومرغوباته عقاربُه وحيّاتُه. وبالجملة حقيقة جهنم وما فيها هي حقيقة الدنيا ومشتهياتها، تصورت للنفوس الشقية بصورة مؤلمة معذبة لها، محرقة لأبدانها، مذيبة للحومها، وشحومها، مبدلة لجلودها، مشوهة لخلقتها، مسودة لوجوهها"(٥).

وإذا كانت هذه جهنم؛ فالعذاب الذي فيها ليس شيئاً إلا عين مرغوبات أهل الشقاء ومشتهياتهم وأطماعهم، وهذا العذاب في جهنّم هو عذاب أهلها، بل جهنم هي نفس تلك الدنيا، لكن بعد خلع حجاب الجهل عن أربابه من أهل الشقاء والكفر الذين نكلوا عن طريق الإيمان والهداية.

ويؤكّد الملا صدرا هذا المعنى لجهنّم، وأنها ليست داراً مستقلة، وكيفية كون الدنيا هي جهنم بالنسبة للأشقياء والكفار، بقوله: "وقد أشرنا سابقاً إلى أن أهل الدنيا أهل النار، لأنّ حقيقة جهنم وآلامها إنما هي ناشئة من الدنيا وشهواتها، وقد سبق أيضاً أنها ليست بدار مستقلة في الوجود، لأنّ الدار منحصرة في الدارين: **دار الأجسام الطبيعية الكائنة الفاسدة، ودار الأجسام الروحانية الحية بحياة ذاتية**، وهي المتحدة مع الأرواح، وأما الفرق بين دار الدنيا ودار الجحيم

---

(٤) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٤٢.

(٥) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٤٣.

هو أنّ النفوس الشقية ما دامت موجودة بحياتها الطبيعية كانت الدنيا دار نعيمها، وتنعمت بشهواتها كالدواب والأنعام، وإذا انتقلت عن هذه الحياة الطبيعية وانبعثت إلى الآخرة وكانت شديدة التعلق بالدنيا، ولذاتها التي هي الآلام بالحقيقة، وخيراتها التي هي شرور في الآخرة، فانقلبت الدنيا نار جهنم في حقهم، وشهواتها حيات وعقارب متمكنة في صميم قلبهم، وطعامها وشرابها حميماً وزقوماً، لهم كل ذلك متصورة بصورها المطابقة لمعناها، متطلعة على أفئدة أهلها، فلم يزل يحترق قلوبهم ونفوسهم بنار الحسد والغضب والتكبر وغيرها، وجلودهم وأبدانهم بنار الطبيعة والشهوة، وتلذعهم وتلسعهم حيات الهيئات السوء وعقاربها، وهكذا إلى أن يشاء الله، فظهر أنّ الدار داران، والدنيا والجحيم في حكم دار واحدة"[٦].

ويقول أيضاً في فصل مستقل خصصه لذلك، وجعله تحت عنوان: [في استيضاح معرفة جهنم ومادتها وصورتها]: "قد سبق أنّ جهنم من سنخ الدنيا وأصلها، ومادتها هي تعلق النفس بأمور الدنيا من حيث هي دنيا، وصورتها هي صورة الهيئات المؤلمة والأعدام والنقائص، فإن الأعدام والنقائص وإن كانت من حيث هي أمور سلبية غير مؤثرة ولا معذبة، إلا أنّ صورها الحضورية وحصولها الخارجية ضرب من الوجود للشيء الموصوف بها، وهي من هذه الجهة شرور حقيقية حاصلة للشيء..."[٧].

وبعبارة أخرى أوضح: جهنم هي الدنيا عينها، وحال أهل النار في جهنم هو عين حالهم في الدنيا، غاية الأمر أنّ الحجاب انكشف عن أهل تلك الدنيا، فظهر ما كان خافياً عن أعينهم، فصارت لذتهم بعينها ألماً، بل ما كانت لذتهم في الدنيا إلا ألماً لنفوسهم، لكنهم ما كانوا يدركون ذلك قبل رفع الحجاب وتحقق النشأة الأخروية.

وقد عبر الملا صدرا عن هذا المعنى بوضوح بقوله: "وأما من لم يسلك سبيل أهل المعرفة والإيمان، ولم يخرج عن باب الدنيا وملازمة الهوى؛ قد مات وكان لم يزل محبوساً في قيد الشهوات وسلسلة التعلقات، ومن اتبع الهوى والشهوة وهما ضدّا الحكمة والعدل، وقامت السماوات والأرض بالحكمة والعدل؛ ففسد عليه عالم الوجود كما هو، وويلٌ لمن فسد عليه العالم وخالف طبعُه حكمة الكون ونظام الوجود، فينتقم منه قيّم العالم وجبار السماوات والأرض، لأنه عدوّ الله وعدوّ العالم، ويكون حاله كما أفصح الله بقوله: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}، فيكون بالضرورة ممنوعاً عما اشتهاه محجوباً عما استدعاه هواه، كما قال تعالى: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ}، لأن ما يشتهيه ويطلبه أمور باطلة وهمية مخالفة للحكمة والحقيقة، لكنه ما دام كونه في الدنيا يلهيه شواغل الدنيا عن الشعور بفسادها ومخالفتها للحكمة ومضادتها للفطرة، لخدر

---

(٦) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٥٦.

(٧) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٦٢.

الطبيعة وغفلة النفس، فإذا ارتفع الحجاب بالموت وانكشف الغطاء؛ ظهر أنه واقع في عقوبةٍ من سخط الله ونار غضبه، {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ}"[٨].

الفرق بين الجنة والنار عند الملا صدرا

أشار الملا صدرا فيما سبق أن نقلناه عنه إلى أن الجنة والنار ليستا دارين مغايرتين للدنيا، بل هما من الدنيا في الحقيقة، لكنه أوضح أن ثمة فرقاً بينهما، وهو أن الجنة أمر روحاني خالص تماماً، بخلاف النار فهي ليست أمراً روحانياً خالصاً، بل هي نتاج أعمال أهل الدنيا في الدنيا، فهي مشوبة بأعمالهم التي تتجسّد في جهنم على صورة الحيات والعقارب والنيران، وذلك وفق فلسفة ملا صدرا، حيث تكون شهوة الغضب مثلاً ناراً في الجحيم يكتوي بها ذلك الغاضب الذي عصى ربه بسبب غضبه، ويكون حسده على صورة حية مثلاً، ويكون حقده على صورة عقرب، وهكذا في سائر الأعمال الموبقة والمعاصي المهلكة، كلها يتحوّل إلى صورة مجسّدة مناسبة لتلك الأعمال يحصل بها عذابه في النار، فالنار لسيت روحانية خالصة كالجنة، بل هي مشوبة بالماديات المناسبة لعالم الدنيا بما يناسب النشأة الآخرة من صيرورة المشتهيات إلى مكونات جسمانية يحصل بها عذابهم وآلامهم.

ومن الفروق أيضاً بين الجنة والنار عند ملا صدرا[٩]:

- أنّ الجنة صورة رحمة الله تعالى، فهي ذاتية، وهي مظهر اسم الله الرحمن، وهي منزلة القرب من الله تعالى.
- وأما النار فهي صورة غضبه، فهي عارضية، وهي مظهر لاسم الله المنتقم الجبار، وهي منزلة البعد من الله تعالى ورحمته.

وينبغي التنبه إلى أن الجنة والنار عند ملا صدرا ليستا دارين خالصتين بجعل إلهي خالص، كما هو المفهوم عند أهل السنة والجماعة، وكما هو الظاهر من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، بل هما نتاج طبيعيّ تكوينيّ وانعكاس لأعمال الناس في دار التكليف.

ويرى الملا صدرا أنّ ذلك مفهوم عند أهل العرفان، بل يرى أنّ انكشاف حقيقة الجنة لا تأييد فيه، بل التأييد كل التأييد هو في انكشاف حقيقة النار، ويرى الملا صدرا أن ذلك من أدقّ المعارف التي لم يحظ بها إلا قليل من العارفين.

قال ملا صدرا في توضيح ما سبق تلخيصه: "فقد تبين مما ذكرناه أنّ دار الجحيم ودار

---

(٨) صدرا، **الحكمة المتعالية:** ج٩، ص٣٤٤.

(٩) انظر أيضاً: صدرا، محمد بن إبراهيم (ت١٠٥٠هـ)، **رسالة الحكمة العرشية**، ط١، (تحقيق عبد الجواد الحسيني)، دار المعارف الحكمية، بيروت، ٢٠١٦م: ص١٨٢ وما بعدها.

العذاب ليست بدار مستقلة ونشأة حقيقية ومنزل حقيقي مباين لعالم الدنيا وعالم الجنان، بل هي حالة ممتزجة ونشأة إضافية، منشؤها ومبدأ كونها هو جوهر الدنيا منتقلاً إلى القيامة بنقل ملائكة العذاب لأجل الذنوب والمعاصي والتعلقات، فافهم هذه المسألة فإنها دقيقة غامضة، قلّ من العرفاء(١٠) من يكاشف حقيقة الجحيم، وقد انكشفت على كثير منهم حقيقة الجنة، وما فيها تأييد"(١١)، ثم قال: "ومما يؤيد ما ذكرناه من أن جهنم ليست بدار حقيقية متأصلة أنها صورة غضب الله، كما أنّ الجنة صورة رحمة الله، وقد ثبت أن رحمة الله ذاتية واسعة كل شيء، والغضب عارضي، وكذا الخيرات صادرة بالذات، والشرور واقعة بالعرض، فعلى هذا القياس لا بدّ أن يكون الجنة موجودة بالذات، والنار مقدّرة بالتبع"(١٢).

النار وقاية من غضب الله تعالى

قال الملا صدرا نقلاً عن بعض العرفاء مرتضياً قوله: "ذكر بعض العرفاء في قوله تعالى: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ} أن النار قد تتخذ دواء لبعض الأمراض، وهو الداء التي لا يتقى إلا بالكيّ من النار، كقوله تعالى: {فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ}، فقد جعل الله النار وقاية في هذا الموطن من داء هو أشدّ من النار في حقّ المبتلى به، وأي داء أكبر من الكبائر، فقد جعل الله لهم النار يوم القيامة دواء كالكيّ بالنار، فدفع بدخولهم النار يوم القيامة داءً عظيماً أعظم من النار، وهو غضب الله، ولهذا يخرجون بعد ذلك من النار إلى الجنة، كما جعل الله في الحدود الدنياوية وقاية من عذاب الآخرة، انتهى كلامه"(١٣).

ولعل صاحب هذا الكلام يقصد به أصحاب الكبائر الذين يخرجون من النار بما معهم من الإيمان بعد تطهيرهم من معاصيهم، لكن هل يجوز أن يقال إن النار والعذاب الذي كانوا فيه هو وقاية من غضب الله تعالى؟ وهل تكون النار غير غضب الله وسخطه، وإن كان أقل من السخط الذي يناله الكفار الذين ما هم منها بمخرجين.

ثمّ عقب الملا صدرا موافقاً على ما نقله عن بعض العرفاء بمزيد من الإيضاح والبيان: "وفيه تأييد لما قلناه من أنّ جهنم ليست من حيث كونها دار العذاب مما له وجود حقيقي، بل منشؤها وجود الضلال والعصيان في النفوس، حتى إنه لو لم يكن معصية بني آدم لما خلق الله

(١٠) جاء في حاشية الكتاب: وكثير منهم [العرفاء] يقول بانقطاع العذاب، وهي من تعليقات السبزواري ومحشي شرح منظومته الزنجاني على كتاب الملا صدرا الذي بين أيدينا.

(١١) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٤٥.

(١٢) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٤٥.

(١٣) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٤٥، والمشار إليه بقوله: بعض العرفاء، هو ابن عربي.

النار "[١٤].

فههنا نرى الملا صدرا يوضح لنا بصورة أجلى تقريره لمعنى الجنة والنار، وأنها ليست إلا تلك الحالة النفسية وما يطرأ على الاستعدادات الفطرية السابقة للناس بسبب أعمالهم التي كانوا متلبسين بها في حياتهم الدنيا، فالجنة والنار ليستا خارجتين عن نفس الإنسان، بل هي أمور إضافية ونسبية باعتبار ظهور الحقّ ظهوراً لا خفاء فيه في النشأة الآخرة المسماة بيوم القيامة، بخلاف ما كان عليه الحال في النشأة الدنيا المسماة بدار التكليف، وهذا مبنيّ على نظرية الملا صدرا التكوينية التجسيمية لأعمال أهل الشقاء التي كانت في الدنيا، وسيوضح ذلك أيضاً فيما يأتي.

(١٤) صدرا، **الحكمة المتعالية:** ج٩، ص٣٤٦.

[المبحث الثاني]
أقسام أهل العذاب في النار وانقلاب ألمهم راحة وعذابها عذوبة

تبعاً لما بيناه سابقاً من معنى الجنة والنار عند الملا صدرا؛ نراه يبين حقيقة أهل العذاب الذين يستحقون النار، ويقسمهم إلى قسمين بحسب ما يحصل لأمزجتهم في نار جهنم التي هي انفعالات نفوسهم تجاه حقائق الكون والطبيعة بعد كشف حجاب الدنيا وظهور حقيقة الأمر في النشأة الآخرة.

فأمّا **القسم الأول** من أهل العذاب: فهم الذين يعالجون من الآلام بقدر ما يوافق أعمالهم السيئة حتى تعتدل نفوسهم وأمزجتهم فتصير موافقة للحقائق، فلا تذوق عندئذ حرّ جهنم ولا عذابها، وتشبيه ذلك بالمريض الذي يُكوى بالنار حتى يبرأ من مرضه فيصير بعد ذلك منعّماً، ولعل هؤلاء عنده هم المؤمنون من أصحاب الكبائر الذين يخرجون من النار في آخر الأمر.

وأمّا **القسم الثاني** من أهل العذاب: فهم الذين يعالجون من الآلام الشديدة ما يبطل استعدادهم بالمرة، فهؤلاء بسبب فساد استعدادهم واستحالة طبيعة نفوسهم يصير عذابهم جَنتهم وجُنتهم، لأنّ ما كان لهم من استعداد الجنان فسد واستحال إلى فطرةِ أخرى، ولعل هؤلاء عنده هم الكفار خاصة.

يقول صدرا في توضيح هذين القسمين وأحكامهما في العذاب: "واعلم أنّ أهل العذاب هم الذين نفوسهم كانت مستعدة لدرجة من درجات الجنان، ثمّ بطل استعدادهم بارتكاب المعاصي، فحالهم كحال من انحرف مزاجه عن الاعتدال اللائق به، وعن الصحة التي له بحسبه، فيكون في ألم شديد حتى **يرجع إلى الاعتدال**(١٥) الذي كان له، أو **بطل استعداده بالكلية**(١٦)، وانتقل مزاجه إلى مزاج وافقه تلك الحالة التي كانت مخالفة لمزاجه الأول، وكان مرضاً في حقّه، فصار المرض صحّة له، والألم راحة له، وانقلب العذاب عذوبةً في حقّه لانقلاب جوهرهِ إلى جوهر أدنى، فكذلك حال من يدخل في النار ويتعذّب بها مدة لأجل الأعمال السيئة، فإنْ بقي في قلبه نور الإيمان فمنع أن ينفذ ظلمة المعاصي في باطن قلبه ويحيط به السيئات، فلا محالة يخرج من النار ويبرأ من العذاب، وأما من اسودّ قلبه بالكلية وغاص في باطن قلبه ظلمة المعاصي لأجل الكفر، فلا يخرج من النار أبداً مخلداً"(١٧).

وبين ملا صدرا ذلك في مواضع كثيرة أخرى، منها: "إذا تقرّر هذا؛ فنقول: إنّ صورة جهنم

---

(١٥) هذا القسم الأول، ولعله يريد بهم العصاة من المؤمنين الذين يخرجون من النار.

(١٦) هذا القسم الثاني، ولعله يريد بهم الكفرة الذين لم يؤمنوا أصلاً والذين لا يخرجون من النار، فلينظر هذا فإنه تفريع مني بما يناسب كلامه الذي نقلناه عنه.

(١٧) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٤٦.

في الآخرة هي صورة الآلام التي هي أعدام ونقائص حاصلة للنفس، فالنفوس الشقية ما دامت على فطرة تدرك بها النقائص والأعدام الموصوفة بها التي من شأن تلك النفوس أن تتصف بمقابلتها يكون لها آلام شديدة بحسبها، فتلك الآلام فيها إلى أن يزول عنها إدراكها لتلك النقائص، إما بتبدل فطرتها إلى فطرة أدنى وأخس من تلك الفطرة، أو بزوال تلك النقائص والأعدام بحصول مقابلاتها من جهة ارتفاع حال تلك النفوس وقوة كمالاتها، واشتغالها بإدراك أمور عالية كانت تعتقدها من قبل، وصارت ذاهلة عنها ممنوعة عن إدراكها لانصراف توجهها عنها إلى تلك الشواغل الحسية، فعلى التقديرين يزول العذاب وتحصل الراحة"(١٨).

[تلخيص]

يمكن تلخيص مذهب الملا صدرا في قضية عذاب أهل النار بأن أهل النار هم الذي ركبوا مراكب الجهل المركب، فنشأ بسبب جهلهم الكفر والعصيان والمعاصي، فصارت هذه الأشياء أي الجهل المركب والكفر والاعتقادات الفاسدة والمعاصي عين عذابهم بعد انكشاف حجابهم في النشأة الأخرة، أي يوم القيامة، ويعبر عن ذلك ملا صدرا بحال النائم الذي يتعذب بالصور المؤلمة والمنامات المفزعة، فهو يتألم بذلك في نومه لا في صحوه، إذ إنه عند صحوه تزول عنه تلك الآلام، فكذلك أهل النار كأنهم كانوا نائمين في دنياهم، فلما قامت عليهم القيامة استيقظوا فصارت ملاذهم آلامهم، ومرغوباتهم حياتهم وعقاربهم، وكلما كان جهلهم أعمق فساداً كانت آلامهم أكثر إيلاماً، حتى ينتهي حال أهل المعاصي بالخروج من النار، ويؤول حال أهل الكفر إلى التخليد في النار، بحيث لا خروج لهم منها، ويتعذبون بعين ملذاتهم التي انكشف لهم أنها آلام، حتى ينتهي الأمر بتبدل فطرتهم بحيث يلتذون بما يجدونه في جهنم، وتصير هذه الدار دار نعيمهم المقيم.

وعليه؛ فإنّ ملا صدرا يقول بأمور:

الأول: خلود الكافرين في النار التي وضّحنا مفهومها عنده.

الثاني: دوام العذاب مدة تعادل أعمالهم السيئة، قبل أن تتبدل فطرتهم.

الثالث: انقطاع العذاب وانقلابه عذوبة وراحة في آخر الأمر بعد تبدل فطرتهم.

ويجدر التنبه هنا إلى المدى الكبير لتأثر صدرا بابن عربي في هذه الأمور الثلاثة التي يقول بها كل منهما، بل مدى التأثر في بعض المباني كشمول الرحمة الإلهية، وكون النار صورة غضب المنتقم الجبار، وأنها عارضية وليست ذاتية، مع اختلافه في بعض المباني الأخرى.

ونسوق من نصوص أخرى للملا صدرا عرضاً لهذه النظرة التي لخصناها من كلامه الآنف.

---

(١٨) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٦٣.

قال الملا صدرا في تفسير خلود أهل النار في العذاب موضحاً كيفية انقلاب العذاب راحة لهم: "فعلم أنّ الأشياء كلها طالبة لذاتها للحقّ مشتاقة إلى لقائه بالذات، وأنّ العداوة والكراهة طارئة بالعرض، فمن أحبّ لقاء الله بالذات أحبّ الله لقاءه بالذات، ومن كره لقاء الله بالعرض لأجل مرض طارٍ على نفسه كره الله لقاءه بالعرض، فيعذبه مدة حتى يبرأ من مرضه ويعود إلى فطرته الأولى، أو يعتاد بهذه الكيفية المرضية زال ألمه وعذابه لحصول اليأس، ويحصل له فطرة أخرى ثانية، وهي فطرة الكفار الآئسين من رحمة الله الخاصة بعباده"[١٩].

فهنا يصرح الملا صدرا بعد ذكر مختصر لأصول المسألة سنذكره بعد الفراغ من هذه النقطة: أنّ الكفار في جهنّم على الدوام، لكن ألمهم وعذابهم يزول لتبدّل فطرتهم، وذلك الزوال المعلّل عنده بحصول اليأس.

ويبدو بصورة واضحة أنّ الملا صدرا في تقرير هذه المسألة تابع للشيخ ابن عربي، أو متأثر به على أقلّ تقدير، بل نجده ينقل نقولاً مطولة عن بعض شراح «الفصوص» المهمّين مثل الشارح القيصري غير معقّب على شيء منها، بما يشعر بموافقته المجملة عليها، مع تأكيده على كثير من محتواها في كلامه مما ننقله في هذا البحث[٢٠].

قال الملا صدرا، وأنقل النصّ بطوله لبيان الغرض: "وقال الشيخ الأعرابي في الفتوحات: يدخل أهل الدارين فيهما السعداء بفضل الله، وأهل النار بعدل الله، وينزلون فيهما بالأعمال، ويخلدون فيهما بالنيات، فيأخذ الألم جزاء العقوبة موازياً لمدة العمر في الشرك في الدنيا، فإذا فرغ الأمد جعل لهم نعيم في الدار التي يخلدون فيها، بحيث إنهم لو دخلوا الجنة تألموا لعدم موافقة الطبع الذي جبلوا عليه، فهم يتلذّذون بما هم فيه من نار وزمهرير، وما فيها من لدغ الحيات والعقارب، كما يلتذّ أهل الجنة بالظلال والنور، ولثم الحسان من الحور، لأن طبائعهم يقتضي ذلك، ألا ترى الجُعْل على طبيعة يتضرر بريح الورد ويلتذ بالنتن، والمحرور من الإنسان يتألم بريح المسك، فاللذات تابعة للملائم، والآلام تابعة لعدمه.

ونقل في الفتوحات أيضاً عن بعض أهل الكشف، قال: إنهم يخرجون إلى الجنة حتى لا يبقى فيها أحد من الناس البتة، ويبقى أبوابها يصطفق، وينبت في قعرها الجرجير، ويخلق الله لها أهلاً يملأها، قال القيصري في شرح الفصوص: واعلمْ أنّ من اكتحلت عينه بنور الحقّ يعلم أنّ العالم بأسره عباد الله، وليس لهم وجود وصفة وفعل إلا بالله وحوله وقوته، وكلهم محتاجون إلى رحمته، وهو الرحمن الرحيم، ومن شأن من هو موصوف بهذه الصفات أن لا يعذب أحداً عذاباً أبداً، وليس ذلك المقدار أيضاً إلا لأجل إيصالهم إلى كمالهم المقدّر لهم، كما يذاب الذهب والفضة

(١٩) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٤٧.

(٢٠) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٥٩-٣٦٢.

بالنار لأجل الخلاص ممّا يكدره وينقص عياره، فهو متضمن لعين اللطف، كما قيل: وتعذيبكم عذب، وسخطكم رضى، وقطعكم وصل، وجوركم عدل. انتهى"[٢١]، هذا ما أورده الملا صدرا من كلام الشيخ ابن عربي.

وقد أورد الملا صدرا إشكالاً على هذا المذهب الذي يتبناه، أعني انقطاع العذاب عن أهل النار، ثم أجاب عليه، مرتضياً تلك العقيدة، بل مبرهناً على عدم منافاتها لما يقطع به من تواصل الآلام في حقّهم، قال:

"فإن قلت: هذه الأقوال الدالة على انقطاع العذاب عن أهل النار، ينافي ما ذكرته سابقاً من دوام الآلام عليهم. قلنا: لا نسلم المنافاة، إذ لا منافاة بين عدم انقطاع العذاب عن أهل النار أبداً، وبين انقطاعه عن كل واحد منهم في وقت"[٢٢].

وبناء على ذلك؛ ينبغي الجزم بأن ملا صدرا يقول بانقطاع العذاب وانقلابه راحة وعذوبة، كما دللنا عليه من أقواله التي نقلناه منه، لكن ينبغي التوقف في أنه يوافق على خروج أهل النار من النار.

ومع ذلك؛ فقد نقل ملا صدرا عن الشيخ ابن عربي نقلاً طويلاً، ثم يتبعه بنقل أطول منه عن القيصري شارح «الفصوص»، ومضمون هذين النقلين أن العذاب ينقطع وينقلب راحة، وأن أهل النار يخرجون منها بمقتضى سبق الرحمة الإلهية وشفاعة الرحمن لهم، وأنّ دار جهنم ينبت فيها الجرجير، كناية عن الخضرة وانقطاع العذاب، ولا يعقب الملا صدرا على هذه النقول بشيء.

يقول ملا صدرا نقلاً فتوحات ابن عربي: "فإن قلت: فكان ينبغي عند الحلول في الدار الواحدة المسماة ناراً أن توجد الراحة، وليس الأمر كذلك.

قلنا: صدقت، ولكن فاتك نظر، وذلك أن المسافرين على نوعين: **مسافر** يكون سفره ممّا هو فيه من الترفّه من كونه مخدوماً حاصلاً له جميع أغراضه في محفة محمولة على أعناق الرجال، محفوظاً عن تغير الأهواء، فهذا مثله في الوصول إلى المنزل مثل أهل الجنة في الجنة. **ومسافر** يقطع الطريق على قدميه قليل الزاد ضعيف المؤنة إذا وصل إلى المنزل بقيت معه بقية التعب والمشقة زماناً حتى تذهب عنه، ثم يجد الراحة، فهذا مثل من يتعذب ويشقى في النار التي منزله، ثمّ تعمّ الراحة التي وسعت كل شيء. **ومسافر بينهما** ليست له رفاهية صاحب الجنة، ولا تعذب صاحب النار التي منزله، فهو بين راحة وتعب، فهي الطائفة التي تخرج بشفاعة الشافعين وبإخراج أرحم الراحمين. قال [اي ابن عربي]: وهم على طبقات بقدر ما يبقى عنهم من الشقاء والتعب، فيزول في النار شيئاً فشيئاً، فإذا انتهت مدته خرج إلى الجنة، وهو محلّ الراحة، وآخرُ

---

(٢١) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٤٩.

(٢٢) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٥٠.

مَن بقي هم الذين ما عملوا خيراً قط إلا من جهة الإيمان، ولا بإتيان مكارم الأخلاق، غير أن العناية سبقت لهم أن يكونوا من أهل تلك الدار، وبقي أهل هذه الدار الأخرى فيها، فغلقت الأبواب وأطبقت النار، ووقع اليأس من الخروج، فحينئذٍ تعمّ الراحة أهلها، لأنهم قد يئسوا من الخروج منها، فإنهم كانوا يخافون الخروج منها لما رأوا إخراج أرحم الراحمين، وهم الذين قد جعلهم الله على مزاج يصلح ساكن تلك الدار، وتتضرر بالخروج منها، كما بينا، فلما يئسوا فرحوا، فنعيمهم هذا القدر، وهو أوّل نعيم يجدونه، وحالهم فيها كما قدمناه بعد فراغ مدة الشقاء، فيستعذبون العذاب فتزول الآلام، ويبقى العذاب، ولهذا سُمّي عذاباً لأنّ المآل استعذابه لمن قام به كمن يستحلي للجرب من يحكّه، ثم قال: فافهم نعيم كلّ دار تستعذبه إن شاء الله تعالى..."[٢٣].

وعلى كل حال؛ فإنّ المراد من نقل هذه النصوص بطولها إثبات أنّ كلاً من ابن عربي وملا صدرا ومن يوافقهما، يبنون على قواعد فلسفية، وإن أيدوا بناءهم بالآيات القرآنية وحكاية الكشف والإلهام.

---

(٢٣) صدرا، **الحكمة المتعالية:** ج٩، ص٣٥٧-٣٥٨.

[المبحث الثالث]

محلّ الآلام لأهل العذاب في النار

وبناءً على عين تلك الأصول الفلسفية التي اعتمدها ملا صدرا في توضيح معنى النار التي هي دار الكفار؛ يبين ملا صدرا أيضاً أنّ **أبدان أهل النار لا تتألم**، وإنما تزداد كمالاً بعد كمال، **وكذلك نفوسهم الناطقة لا تتألم**، لأنّ النفوس الناطقة ليس من شأنها في أصل الفطرة ولا من استعدادها أن تشعر بالألم، وإنما هي مهيئة لتسعد بالمعرفة، **وكذلك النفوس الحيوانية لا تتألم أيضاً**، لأنها ليست محلاً للألم.

والنقل الآتي عن ملا صدرا يبين العلة الكامنة وراء نفي أن يكون للبدن أو النفس الناطقة أو النفس الحيوانية شعورٌ بالألم، وكونها غير صالحة لأن تكون محلاً له أصلاً.

قال صدرا: "لما علمت أنّ حقيقة جهنم حقيقة ممزوجة من الدنيا والآخرة بحسب المادة والصورة، فإنّ مادتها الأعدام والشرور الدنيوية، وصورتها حضورها عند النفس بصورة إدراكية مؤلمة من جهة تعلّقها والتفاتها بالدنيا، **فاعلم** أنّ محل العذاب والنقمة أيضاً ليس أمراً بسيطاً كالبدن فقط، أو النفس الناطقة فقط، أو النفس الحيوانية فقط. أمّا البدن فالجوارح والأعضاء ليست بموضع الآلام، بل هي مما يستعذب جميع ما يرد عليها من أنواع العقوبات والآلام، لأنها قابلة للفصل والوصل والحرارة والبرودة وغيرها من الأضداد والأعدام، فكل ما يرد على الجسم يكون صفة كمالية له...، وأمّا النفس الناطقة أعني الروح الإلهيّ محلّ الحكمة والمعرفة وهي سعيدة في الدنيا والآخرة لا حظّ لها في الشقاء، لأنها ليست من عالم الشقاء والشرّ، إلا أنّ الله ركّبها هذا المركب الحيوانيّ المسمى بالنفس الحيوانية...، وأما النفس الحيوانية فالمعاصي وإن نشأت بسببها، إلا أنها لا ذنب لها ولا معصية، لأنّ الأفعال الصادرة منها، كالشهوة والغضب وغيرها هي كمالات ومتممات لها، بها يسبح الله ويقدسه، وليست مما يقصد في أفعالها المخالفة لله، ولا في تأتّيها المعصية انتهاكاً للشريعة، وإنما تجري بحسب طبعها، وكل ما يجري من الأفعال بحسب الطبع فهو تسبيح لله وتقديس، كما علم سابقاً"(٢٤).

وإذا لم تكن الأجساد ولا النفوس محلاً للألم، فما هو محلّ الآلام التي يشعر بها أهل النار عند ملا صدرا؟ يجيبنا عن ذلك بأنّ محلّ الآلام شيء مركب لا بسيط، وهو مركّب من أمرين،

---

(٢٤) صدرا، **الحكمة المتعالية:** ج٩، ص٣٦٩-٣٧١، وانظر إن شئت النصّ بطوله مع تعليقاته التي حاول فيها الملا سبزواري وشارحه زنجاني تخفيف حدّة كلام الملا صدرا في نفيه لتألّم الجوارح واستعذابها لما وقع عليها من عذاب، لما أنهما لا يوافقان على كلامه من جهة الدين والشريعة، بل يبطلانه كما صرّحا في تعليقاتهما. وهو موقف جليل منهما، قد لا يقوى عليه كثير من أتباع ابن عربي المشدوهين في بحار فتوحاته والمهيّمين في نصوص فصوصه.

هما: **النفس الحيوانية، والنفس الآدمية**، وهذا الكلام ليس من السهل أن يدرك معناه إلا بعد تأمل جيد، ولذلك فهو يحتاج إلى توضيح قبل أن ننقل نصه بطوله، فنقول:

أما النفس الحيوانية؛ فالمراد بها عند الملا صدرا ذلك الجسم والهيكل المادي والبدن، فهذا محلّ لصورة العذاب من حيث هو صورة فقط.

وأمّا النفس الآدمية؛ فالمراد بها عنده محلّ الإدراك الآدمي، وهو ذلك الشيء المُدرِك بشرط ملابسته للنفس الحيوانية، وليست النفس الآدمية هي الناطقة عند الملا صدرا، بل هو نصَّ على خلاف ذلك، لأن النفس الناطقة منفكة عن النفس الحيوانية غير ملابسة لها، بل الناطقة تصير عقلاً بالفعل عند انفكاكها عن الحيوانية، فهي تترك ثوب الآدمية المستعار وتتجرد فتصير عقلاً بالفعل، وهذه الناطقة لا تكون إلا محلاً للسعادة والاطلاع على عوالم الخير المحض، وقد شرحنا ذلك سابقاً لما نقلناه عنه.

إذن؛ فالمركّب من هاتين النفسين؛ أعني: الحيوانية والآدمية، هما محلّ الآلام والعذاب، أو بتعبير آخر: محلّ العذاب هو النفس الآدمية المتصلة بالجسد الحيوانيّ، وبتعبير ثالث أوضح وأجمع: الألم يقوم بالنفس الحساسة المتخيلة.

وكل ذلك يفصّله صدرا بقوله الآتي:

"... محلّ الآلام كالممتزج من أمرين، وهي النفس الآدمية المتصلة بالنفس الحيوانية قبل أن تصير عقلاً بالفعل، فهي كالبرزخ الجامع للطرفين والمتوسط بينهما، فهي محلُّ صورة العقوبات من حيث كونها نفساً حيوانية، ومُدركُ الآلام من حيث كونها ناطقة.

فإذا وقع العقاب يوم القيامة؛ فإنما يقع على النفس الحيوانية لمخالفتها للنفس الناطقة في سلوك طريق الحق، كما يضرب الدابة إذا جمحت وخرجت عن الطريق الذي يراد المشي عليه، ألا ترى الحدود الشرعية في الزنا واللواط والسرقة وغيرها أنها محلّها النفس الحيوانية، وهي التي تحسّ بألم القتل وقطع اليد وضرب الظهر، فقامت الحدود بالجسم، وقام الألم بالنفس الحسّاسة المتخيلة، وأما النفس الناطقة أعني الجوهر العقليّ المدرك للعقليات المحضة لا تبرح عن مكانها العالي الشريف، فهي على شرفها في عالمها وسعادتها الدائمة، لأنها المنفوخة من روح الله، وليست هي موجودة في أكثر الناس، وأمّا الحيوانية فلا يخلو منها إنسان، سواء كان سعيداً فهي سليمة مطيعة ذلولة، أو كان شقياً فهي عاصية جموحة، فالمطيعة تنسرح يوم الآخرة في رياض الجنة ومراتعها، **والعاصية تعاقب وتعذب حتى تصير منقادة، وأما الأعضاء والجوارح فما عندها إلا النعيم الدائم في جهنم**، مثل ما هي الخزنة عليه من كونها مسبحة لله تمجده مطيعة دائماً لما يقوم بها أو يقام

عليها من الأفعال[٢٥]، كما في الدنيا، فيتخيل الإنسان أنّ العضو يتألم ويتأذى لإحساسه في نفسه بالألم، وليس كما توهمه إنما هو المتألم المتأذّي بما يحمله إليه حاسّة الجارحة من صورة ما يكرهه، ألا ترى المريض إذا نام وهو حيّ، والحسّ عنده موجود، والجرح الذي يتألم منه في يقظته حاصل في العضو، ومع هذا لا يجد ألماً، لأنّ الواجد للألم قد صرف وجهه عن عالم الشهادة إلى عالم البرزخ فما عنده خبر، فإذا استيقظ المريض ورجع إلى عالم الشهادة ونزل إلى منزل الحواسّ قامت به الأوجاع والآلام، فإن بقي في البرزخ على ما يكون عليه إما في رؤيا مفزعة وصورة مؤلمة فيتألم، أو في رؤيا حسنة وصورة ملذة فيتنعم، فينتقل معه النعيم أو الألم حيث انتقل، وهكذا حاله في الآخرة، فتنبه لما قلناه، وتبصر بما نورناه"[٢٦].

وننبّه هنا أنّ هذا النصّ يكاد يكون منقولاً عن ابن عربي في فتوحاته[٢٧]، مع أن ملا صدرا لم يذكره نقلاً عنه، بل ذكره ابتداء، وهذا يشير إلى مدى التأثر الحاصل من صدرا بابن عربي في المسألة التي نحن بصددها.

وننبّه على بعض ما في هذا النصّ، وأكتفي منها بأمور ثلاثة:

الأول: أنّ النفوس سواء كانت طائعة أو عاصية، فمصيرها في آخر الأمر إلى السعادة، إما مباشرة في النفوس الطائعة التي هي أهل الجنان، أو بعد أوان وبطريق طويل في النفوس العاصية التي هي أهل النيران.

الثاني: أعضاء أهل النار وجوارحهم من حيث هي أعضاء وجوارح فقط، تتقلّب حال كونها في النيران في نعيم مقيم دائم في جهنم، لأنها ليس من شأنها إلا ذلك.

الثالث: تشبيه حال أهل النار في عذابهم وآلامهم بحال النائم في نومه وما قد يلاقيه من صور خيالية مؤلمة، وهذا التشبيه في نظري تشبيه بارع في تقريب مراد الملا صدرا وتوجيه فكرته

---

(٢٥) رأيت أن أعقب على هذا المحل، فأقول: المراد بالخزنة هم الملائكة الموكلون بنار جهنم، فالملا صدرا يريد أن يقرب في الأذهان معنى أن تكون أعضاء أهل النار وجوارحهم في النعيم المقيم حال كونهم في جهنم، فشبه هؤلاء الكفار بالملائكة من جهة تنعم الأعضاء والجوارح، وأن العذاب الواقع على الكفار إنما هو واقع على نفوسهم المتخيلة بالتفاتهم إلى جهة الملذات والمرغوبات التي تكون عين عقاربهم وحياتهم، وهذا كله مبني على طرق الفلاسفة، ولا يخلو أصلاً من إيرادات واعتراضات على طريقتهم هم، وأما على طريقة أهل السنة فذلك ليس بلازم من أصل أصله، بل الأثار التي تحصل للناس في الدنيا والآخرة إنما هي بخلق الله تعالى، فالملائكة موكلون بنار جهنم فلا يتصور في حقهم عذاب أصلاً ولا تعذيب، حتى يرد شيء مما قاله في هذا التشبيه، وقصة سيدنا إبراهيم معلومة حالة الدنيا علاوة على ما يذكره ملا صدرا من أمور الآخرة رجماً بالغيب.

(٢٦) صدرا، **الحكمة المتعالية:** ج٩، ص:٣٧١-٣٧٢.

(٢٧) انظر: ابن عربي، محمد بن علي بن محمد الحاتمي (ت٦٣٨هـ)، **الفتوحات المكية**، الطبعة الميمنية، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة: ج٣، ص٧٥-٧٦.

عن عذاب أهل النار ومحلّ التألم منهم يوم القيامة، وإن كان مسبوقاً فيه بكلام ابن عربي.

ولا تغفل أيها القارئ الكريم عن تنزيل ألفاظ الملا صدرا منزلتها من الفهم والاصطلاح، فإنّ لكل ذلك معنى فلسفياً خاصاً، فالنار ليست هي المعبّر عنها في الشرع، بل معناها عند صدرا تلك الدار التي الممتزجة من النشأة الآخرة والدنيا، وأن العذاب الواقع على أهلها هو ما تكتوي به نفوسهم المتخيلة كحال النائم، وهذا الكلام وإن كان مأخذه من اللغة العربية شبه مستحيل، إلا أنه مقصود ملا صدرا وغيره بناء على القواعد الفلسفية، ولا يخفى ما فيه من بعد ومناقضة لأصول الشريعة ومقاصدها من التنزيل الحكيم.

[المبحث الرابع]

الأصل الفلسفي لتفسير الحكماء وبعض الصوفية لخلود أهل النار في العذاب

لقد خاض الملا صدرا في مصير القسم الثاني من أهل العذاب، وهم الكفار، لأنّ هؤلاء خصوصاً مخلدون في النار، وفيهم تكمن المشكلة الأعوص على الإطلاق في نظر الفلاسفة والحكماء بطوائفهم وغيرهم من المنكرين لهذه المسألة في الشريعة، وهي مشكلة تخليد الكفار في عذاب النار.

ونلاحظ أن الملا صدرا يصف المخالفين لهذه الأحكام التي يطلقها في هذه المسألة بعلماء الرسوم، وهذا الوصف ليس منه فقط، بل يصفهم به ابن عربي وكثير من الصوفية الفلسفية، حيث يعدون ما وصلوا إليه من النتائج عين اليقين الذي لا يفقهه علماء الرسوم، ولا يخفى أن إطلاقهم هذا هو تزكية لأنفسهم وعلومهم، وانتقاص من علماء الشريعة الذين هم علماء ظاهر وباطن وحق وحقيقة، والذي يجمع كل ذلك هو علم الشريعة الكامل الجامع للحقيقة والطريقة.

ومن المعلوم أنّ دعوى هؤلاء الفلاسفة –سواء كانوا صوفية محسوبين على أهل السنة أو على الشيعة– أقول: دعواهم أن هذه الأحكام ناشئة عن الكشف والمعاينة قد لا يسلّم لهم، وإذا سلم لهم تنزلاً وحسن ظنّ، فلا يسلم لهم أنه كشف صحيح ومعاينة مطابقة للواقع، بل قد يكون كشفاً غلطاً، خصوصاً أن من ينسبون أنفسهم إلى الكشف والعرفان من الصوفية الوجودية، ومعهم بل قبلهم الفلاسفة والحكماء يبنون على قواعد الفلسفة، ومن جملة تلك القواعد كما هو معلوم تلقي النفوس الشريفة من المبادئ العالية المعبر عنه عندهم بالكشف أو الفيض أو التجلي أو التلقي، على اختلاف في الاصطلاحات مع اتفاق في أصل القاعدة الفلسفية، ويجدر التنبه إلى أنّ أصحاب الكشوف مختلفون فيما بينهم أصلاً، بتصريح ابن عربي والملا صدرا وغيرهما، فلا حجّة في مجرّد الكشف عند التأمّل الصحيح.

وانظر كيف نصّ على ذلك الملا صدرا نفسه عند ذكر أصل المسألة، فيما يقوله ابتداءً من غير أن يصرح بنقله عن ابن عربي، وهو في الحقيقة مأخوذ من «الفتوحات المكية»[٢٨]، قال صدرا:

"(فصل ٢٨) في كيفية خلود أهل النار في النار، هذه مسألة عويصة، وهي موضع خلاف بين علماء الرسوم وعلماء الكشوف، وكذا موضع خلاف بين أهل الكشف؛ هل يسرمد العذاب على أهل النار الذين هم من أهلها إلى ما لا نهاية له، أو يكون لهم نعيم بدار الشقاء، فينتهي العذاب

(٢٨) انظر: ابن عربي، **الفتوحات المكية**: ج٢، ص٦٤٨.

فيهم إلى أجل مسمى؟ مع اتفاقهم[٢٩] على عدم خروج الكفار منها، وأنهم ماكثون فيها إلى ما لا نهاية له، فإنّ لكلّ من الدارين عمّاراً، ولكل منهما ملؤها"[٣٠].

فهذا مما ينبغي أن يتنبه إليه، لأن ملا صدرا وابن عربي صاحب النصّ الأصلي يصرح تصريحاً بوقوع الخلاف العظيم بين العلماء (علماء الرسوم) وبين الصوفية (علماء الكشف) في هذه المسألة، أعني مسألة خلود الكفار في النار مع دوام عذابهم، فليلاحظ هذا التصريح بعض الصوفية المنتسبين إلى أهل السنة نوعَ انتساب والذين يزعمون أنّ مذهب هؤلاء العرفاء الفلاسفة هو عين مذهب أهل السنة والجماعة، أو يزعم أحياناً أنه لا يخالف مذهبهم، ليتوسل بذلك إلى دمج هذه الأباطيل في مذهب أهل السنة، فهاهم أصحاب هذه المذهب يصرحون بمخالفة أهل السنة.

وانظر كيف صرح الملا صدرا أيضاً بمنشأ المسألة وأصل الحكم العرفاني الذي يقدّمه لنا فيها، وهو بعض القواعد الفلسفية، قال: "اعلم أنّ الأصول الحكمية دالة على أنّ القسر لا يدوم على طبيعة، وأن لكل موجود من الموجودات الطبيعية غاية ينتهي إليها وقتاً، وهي خيره وكماله، وأن الواجب جلّ ذكره أوجد الأشياء على وجه تكون مجبولة على قوة ينحفظ بها خيرها الموجود، وتطلب بها كمالها المفقود، كما قال تعالى: {الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى}..."[٣١].

ومن الأصول الفلسفية التي ساقها أيضاً في هذه المسألة تأثير الأجرام الفلكية في عالم الكون والفساد، وهذا التأثير كما هو معلوم من طريق الإيجاب الذاتي والتعليل العقليّ على طريقة

---

(٢٩) جاء في حاشية "**الحكمة المتعالية**" ص٣٤٦، تعليقة من السبزواري والزنجاني تردّ دعوى الاتفاق هذه، وهي: "لا اتفاق، إذ منهم من قال: إن الخلود جاء لغة بمعنى الزمان الكثير، وسيأتي نقلاً عن بعض أهل الكشف أنهم يخرجون إلى الجنة، لكن المصنف قدس سره لم يعبأ بهذا لشذوذه، وإنما قالوا بعدم الخروج لكون الخلود في النار للكفار بعلاوة أنه مدلول الكتاب ضروري الدين، وأما العذاب الدائم فليس من ضروريات الدين، فلا يجوز تكفير منكريه، وعندي دوام العذاب حقّ، وانقطاعه عن الكفار باطل". انتهى ما أردنا نقله من التعليقة، ولنا عليها كلام.

(٣٠) صدرا، **الحكمة المتعالية:** ج٩، ص٣٤٦، وقد ذكر الملا صدرا هذا الكلام في «**الحكمة العرشية**» بنصّه تقريباً، بل ذكر فيه أيضاً نحواً من التعليلات المذكورة هنا، انظر: صدرا، **رسالة الحكمة العرشية:** ص١٩٢ وما بعدها، راجعه في أحوال تعرض في الآخرة (قاعدة في خلود أهل النار فيها) في الإشراق الثالث من المشرق الثاني من الرّسالة، وقد أشرت إلى ذلك لما سأذكره في المبحث السادس من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

(٣١) صدرا، **الحكمة المتعالية:** ج٩، ص٣٤٧، وقد اعترض السبزواري والزنجاني على هذا التعليل، وناقشا الملا صدرا في قضية عدم دوام القسر، قالا في حاشية "الحكمة المتعالية" ص٣٤٦: "وما يقول المصنف قدس سره أن القسر لا يدوم، وأن الطوارئ والعوارض تزول، فجوابه أنه ليس قسراً ولا عروضاً، بل تصير الكيفية الظلمانية جوهرية، والعرضية [...] ذاتية، مثل مركب القوى، فإن الفطرة الإنسانية ذاتية لا تزول، والفطرة الثانية أيضاً ذاتية، إذ صارت ملكة جوهرية، إذ العادة طبيعة ثانوية، فافهم" انتهت التعليقة.

الفلاسفة، وهو من جملة ما تأثر فيه الملا صدرا بابن عربي كما يبدو، إذ إنه نقل كلاماً طويلاً عنه(٣٢)، ثم قال عقبه:

"... لما مرّ أنّ جهنم هي من النشأة الآخرة، وإن كانت صورتها هي مآل الدنيا وباطنها وحقيقتها، والذي ذهب إليه هذا المحقّق [يقصد ابن عربي] من أنّ نضج فواكه الجنة وطبخ طعامها بحرارة هذا العالم وأشعة الكواكب سببه أنّ الإنسان إنما يتكون وينمو ويتمّ خلقته وتكمل طبيعته باستحالات وانقلاب تطرأ على مادته لا يمكن ذلك إلا بحرارة غريزية محلّلة، وتلك الحرارة مستفادة من حركات الأجرام الفلكية وأشعتها، كما ثبت في مقامه"(٣٣).

وقال في بيان تأثير الأجرام والكواكب وكونها منشأ لعذاب أهل النار في فصل (٣٤) عقده لذلك تحت عنوان (في كيفية تجدد الأحوال والآثار على أهل الجنة والنار):

"أما أهل النار؛ فلا شبهة في تجدد أحوالهم وتبدل جلودهم واستحالة أبدانهم وتقلبها من صورة إلى صورة، لقوله تعالى: {كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ}، وذلك لأن طبائعهم من القوى الجسمانية المادية، لما مرّ أنّ دار الجحيم من جنس هذه الدار، وقد سبق أنّ أفاعيل القوى المادية وانفعالاتها متناهية، فلا بدّ فيها من انقطاع وتبدّل، ثم لا بدّ في تبدّل الأبدان واستحالة المواد من حركة دورية صادرة عن أجسام سماوية محيطة بأجسام ذوات جهات متباينة كائنة فاسدة، فيكون الحكم في أهل النار بحسب ما يعطيه الأمر الإلهي بما أودعه من القوة المحركة في الجرم الأقصى الجابرة إياه على حركاته، والكواكب الثابتة في سياحة الدراري السبعة المطموسة الأنوار كلها يوم الآخرة، فهي كواكب لكنها ليست بثواقب ولا مضيئة، ولها تأثيرات في خلق أهل النار بفنون من العذاب وصنوف من العقاب، بحسب ما يقتضيه سوابق أعمالهم ومبادئ أفعالهم واعتقاداتهم ونيّاتهم، ولهذا حكم أهل المعرفة والشهود بأن حكم النار وأهلها قريب من حكم الدنيا وأهلها..."(٣٤).

وفي آخر هذا النصّ كما ترى تصريح بأنّ حكم أهل الكشف وشهودهم ومعرفتهم مبنيّ على تلك الأصول الفلسفية في تأثير الأجرام والكواكب، ولو في النشأة الآخرة بعد انطماس ضوئها وفسادها واستحالاتها.

---

(٣٢) انظر: صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٦٧، وفيه نقل عن بعض أهل الكشف يقصد ابن عربي من الفتوحات، الباب السابع والثمانين في تقوى النار، انظر: ابن عربي، **الفتوحات المكية**: ج٢، ص١٦١.

(٣٣) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٦٨.

(٣٤) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٨٠-٣٨١.

[المبحث الخامس]

تعليل انقطاع العذاب والألم وانقلابه راحة

بعلة شمول الرحمة الإلهية وغيرها من التعليلات الفلسفية

إنّ الملا صدرا يذهب في تعليل عدم دوام عذاب أهل النار وانقطاعه، بل انقلاب عذابهم راحة وعذوبة، إلى **تعليلات أربعة بحسب استقراء كلامه ظاهرياً:**

التعليل الأول: التعليل الفلسفيّ بناء على الأصول الفلسفية.

التعليل الثاني: التعليل العقليّ كما يزعمه صدرا مع مزجه بمسلمات اعتقادية عنده، كشمول الرحمة الإلهية، وكون الإنسان مجبوراً، وعدم عدالة تسرمد العذاب عليهم، وهذه أمور تكاد تكون من جملة المتابعات للشيخ ابن عربي وطائفته، وهو يؤكد ذلك بالنقول الطويلة المتتابعة عن «الفتوحات» وبعض شراح «الفصوص».

التعليل الثالث: مستندات نقلية من الآيات الكريمة على وفق التعليل الفلسفيّ السابق.

التعليل الرابع: الكشف والعرفان المتجاوز لطريق النظر الذي يدعي أهله أنهم وافقوا فيه الكتاب والسنة بنور البصيرة، وهذه دعوى غير مسموعة لدى الاطّلاع على ما يقرّرونه من الآراء.

وفي الحقيقة وتحقيقياً؛ فإن ههنا ملحوظة يجدر التنبه لها، وهي أنّ التعليل الفلسفي عند الملا صدرا وغيره من أصحاب هذه الطريقة كابن عربي والجيلي هو أصل التعليلات المذكورة، فإنّهم ينظرون إلى تكوين العالم ونشأته وكيفية صدوره عن المبدأ الأول الواجب تلك النظرة الفلسفية التي بيّناها باختصار وإيجاز مطلع هذا البحث، ومن خلال هذه النظرة يفسرون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ثم يسوقون عليها شواهد الكشف والمعاينة، وما يزعمونه أدلة عقلية، فليس احتجاج الملا صدرا بالنقل احتجاجاً بالنقل على وفق الوضع اللغوي والسياقي حقيقةً، بل هو على وفق الوضع الفلسفي الذي يراه، وله فيه انفرادات معينة عن غيره من فلاسفة الصوفية، بل لقد وجدنا الملا صدرا في بعض الاستدلالات القرآنية يضعّف بعض ما ينقله عن الشيخ ابن عربي، ويقترح استدلالات أقوى في نظره، لكن الأصول الفلسفية واحدة عند الفلاسفة، مهما تباينت طرقهم التفصيلية، ومهما قالوا إنه حاصل بالكشف وحضور النفوس الناطقة في عالم الغيب.

وبناءً على هذه الطريقة التي نراها بحسب استقراء كلامه نسوق في هذا المبحث تعليله للمسألة التي نحن بصددها، وهي انقطاع العذاب واستحالته إلى راحة وعذوبة ونعيم وتلذّذ، كما عبر به في مواضع مختلفة، ونقله عن فتوحات الشيخ ابن عربي في نقولات كثيرة، ونسوقه بأجمعه سواء كان من الجانب الفلسفي أو العقلي أو النقلي أو ما يزعمونه كشفاً.

ونبدأ بقول الملا صدرا: "أقول: وهذه عبادة ذاتية، وقد سبق منا القول بأن جميع الحركات الطبيعية والانتقالات في ذوات الطبائع والنفوس إلى الله وبالله وفي سبيل الله، والإنسان بحسب

فطرته داخل في السالكين إليه، وأما بحسب اختياره وهواه فإن كان من أهل السعادة فيزيد على قربه قرباً، وعلى سلوكه الجبليّ سعياً وإمعاناً وهرولة، وإن كان من الكفار الناقصين المختوم على قلوبهم الصمّ البكم الذين لا يعقلون، فهو كالدواب والبهائم لا يفقه شيئاً إلا الأغراض الحيوانية، وإنما الغرض في وجوده حراسة الدنيا وعمارة الأبدان، وما له في الآخرة من خلاق، فله المشي في مراتع الدواب والسباع فيحشر كحشرها، ويعذب كعذابها، ويحاسب كحسابها، وينعمّ كنعيمها، وإنْ كان من أهل النفاق المردودين عن الفطرة الخاصة المطرودين عن سماء الرحمة، فيكون عذابه أليماً لانحرافه عما فطر عليه، وهويه إلى الهاوية بما كسبت يداه، فبقدر خروجه عن الفطرة ونزوله في مهاوي الجحيم يكون عذابه الأليم، إلا أنّ الرحمة واسعة، والآلام دالة على وجود جوهر أصليّ يضاد الهيئات الحيوانية الردية، والتقاوم بين المتضادين ليس بدائم، ولا بأكثري، كما حقق في مقامه، فلا محالة يؤول إما إلى بطلان أحدهما، أو إلى الخلاص، ولكن الجوهر النفسانيّ من الإنسان لا يقبل الفساد، فإما أن يزول الهيئات الردية بزوال أسبابها، فيعود إلى الفطرة ويدخل الجنة إن لم تكن الهيئات من باب الاعتقادات كالشرك، وإلا فتنقلب إلى فطرة أخرى ويخلص من الألم والعذاب، وهذا هو المراد من مذهب الحكماء أنّ عذاب الجهل المركب أبدي، يعني صاحب الاعتقاد الفاسد الراسخ في جهله وعتوه لا يمكن عوده إلى الفطرة الأصلية، فيصير من الهالكين المائتين عن هذه النشأة، وعن الحياة العقلية، ولا ينافي ذلك كونه حياً بحياة أخرى نازلة دنية"[٣٥]، وفي هذا النصّ أمور كثيرة جداً من المخالفات لنصوص الكتاب والسنة، لكن وبقطع النظر عن ذلك ننبه إلى أمرين هما مقصودنا هنا:

الأمر الأول: أنّ أهل النار عند الملا صدرا وغيرهم ممن تلبّسوا بالهيئات الردية التي هي من باب الاعتقادات الفاسدة كالشرك لا يخرجون من النار، ويخلصون من العذاب والألم بسب تحول فطرتهم إلى فطرة أخرى يصير العذاب والألم مناسباً لها ومن طبيعتها، فهذا معنى انقطاع ألمهم وعذابهم وانقلابه إلى راحة.

الأمر الثاني: أن تعليل انقطاع العذاب وانقلابه عذوبة وتلذذاً مبني على قواعد فلسفية محضة، وذلك بتصريح من الملا صدرا ومعلقيه أيضاً، وكما هو مفهوم لكل مطلع لا يجحد مذاهب الفلاسفة وينزع بها عن مآخذها غيرةً خاطئة منه على ما يظنه كشفاً وإلهاماً، وهيهات أن يصح هذا الظنّ، وقد نبهنا سابقاً أن هذا إن كان كشفاً فهو كشف على أصول الفلسفة لما ألقى أصحابه بأنفسهم في مهاوي الاعتقادات الفاسدة المبنية على الإيجاب الذاتي والتعليل والجبر وغير ذلك من الضلالات.

ومن البين أنّ هذا التفسير لعذاب الكفار ودوامه مخالف للنصوص القرآنية الكريمة، وأما

---

(٣٥) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٥١.

تصريح أهل هذا العرفان الفلسفي بأنّ الإنسان يموت بتغير فطرته الأصلية وتبدلها فهو منافٍ للقرآن الكريم أيضاً، ولذلك اضطر الملا صدرا إلى تأويل قول الله تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ} [طه: ٧٤]، عن ظاهره الذي يقضي بعدم الموت، حيث قال: "وقوله تعالى في حقه [أي الكافر الجاهل جهلاً مركباً]: {لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى}، أي: لا يموت موت البهائم ونحوها، ولا يحيى حياة العقلاء السعداء"[٣٦]، فانظر كيف قيد الملا صدرا الموت بما يخرجه عن معناه، ومراده أنه يموت، لكن لا كميتة البهائم، بل يموت كميتة العقلاء الذين تتبدل فطرتهم إلى فطرة أخرى، وفيه ما فيه من تأويل الآية، وتأويل معنى الموت أصلاً بما لم توضع له اللغة، ولا يفهم من سياق القرآن، بل يخالف الكتاب والسنة ومذهب أهل الحقّ، حتى إنه تحريف للمعنى عن المراد الإلهي من الكتاب الحكيم.

بل نجد أنّ الملا صدرا متمسّك بهذه العقيدة من قناعة نفسه، لا بمجرد التقليد للشيخ ابن عربي، وبلغت قناعته إلى درجة أنه ضعّف استدلال الشيخ ابن عربي بقوله تعالى: {أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون} [البقرة: ٣٩]، على انقلاب العذاب عذوبة، واقترح دليلاً آخر أصوب في الدلالة بحسب رأيه، وهو الاستدلال بقول الله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْس} [الأعراف: ١٧٩]، وقد يكون هو أيضاً من استدلالات الشيخ ابن عربي، فليراجع.

قال في توجيه الاستدلال بهذه الآية على تنعّم أهل النار في النار: "والأولى في الاستدلال على هذا المطلب أن يُستدل بقوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} الآية، فإن المخلوق الذي غاية وجوده أن يدخل في جهنم بحسب الوضع الإلهي والقضاء الرباني لا بدّ أن يكون ذلك الدخول موافقاً لطبعه وكمالاً لوجوده، إذ الغايات كما مرّ كمالات للوجودات، وكمال الشيء الموافق له لا يكون عذاباً في حقه، وإنما يكون عذاباً في حقّ غيره ممن خُلق للدرجات العالية"[٣٧].

وأيّد ملا صدرا استدلاله هذا بوجه آخر عقليّ ممزوج بمقدّمات اعتقادية مسلّمة عنده، كشمول الرحمة الإلهية، وكون الإنسان مجبوراً، وعدم عدالة تسرمد العذاب عليهم، يقول: "ولك أن تقول: وقد قام الدليل العقلي على أنّ الباري سبحانه لا ينفعه الطاعات، ولا يضرّه المخالفات، وأن كل شيء جارٍ بقضائه وقدره، وأن الخلق مجبورون في اختيارهم، فكيف تسرمد العذاب عليهم، وجاء في الحديث: وآخر من يشفع هو أرحم الراحمين، فالآيات الواردة في حقّهم بالتعذيب كلها حقّ وصدق، وكلام أهل المكاشفة لا ينافيها، لأن كون الشيء عذاباً من وجه لا ينافي كونها رحمة من وجه آخر، فسبحان من اتسعت رحمته لأوليائه في شدة نقمته في الدنيا، واشتدت نقمته لأعدائه في

---

(٣٦) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٥٢.

(٣٧) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٥٢.

سعة رحمته لهم في الآخرة"[٣٨].

[ملخص هامّ: كيفية تحقق اللذة في العذاب]

أردت هنا أن أجلّي نقطة هامّة، لعلّها لصعوبة التصور قد تخفى، وهي: أنّ الملا صدرا لا يمنع تجدّد العذابات على أهل النار الذين هم أهلها من الكفار والمشركين الذي اعتقدوا العقائد الردية، ولا يمنع أن تكون النار دار جحيم عليهم، بل هو يرى ذلك واجباً، ولا يصحّح قول من يقول إنها تؤول إلى دار نعيم، مخالفاً في ذلك بعض أهل الكشف وغيرهم ممّن يقول بفناء النار أو انقطاع آلامها، ولكنه مع اعتقاده بتجدّد صنوف العذاب على الكفار يراهم منعّمين بسبب تحول فطرتهم إلى فطرة أخرى بسبب دوام ذلك العذاب عليهم، فصار العذاب صورة لها جهتان: جهة مؤلمة موجعة بحسب الفطرة الأولى، وجهة أخرى ملذة منعمة بحسب الفطرة الثانية، فأوّل أمر الكفار تألم وتوجّع بذلك العذاب وصنوفه، وآخر أمرهم تلذّذ وراحة.

---

(٣٨) صدرا، **الحكمة المتعالية**: ج٩، ص٣٥٣.

[المبحث السادس]
عَرْض نصّ أورده صدرا في رسالة الحكمة العرشية

ذكرت في مقدمة هذا البحث أنّ غرضي عرض مذهب الملا صدرا في كتاب الحكمة المتعالية خاصة، بوصفه دراسة موضوعية، وليس من غرضي أن أقرر مذهبه متكاملاً أو تقرير آخر ما صار إليه في آخر كتبه، كما أنه ليس من غرضي الردّ عليه أو تضعيف مبانيه.

لكني أردتُ ههنا إيراد نصّ للملا صدرا في «**رسالة الحكمة العرشيّة**»، وهو نصّ بنى عليه بعض الناقدين والباحثين من الشيعة المهتمين بدراسة تراث الملا صدرا ما ادعوا أنه تراجع منه عن مذهبه في انقطاع الألم عن أهل النار من الكفار الذين هم أهلها، وانقلاب عذابهم عذوبة، وذلك كما عرضناه في كتاب الأسفار الذي أوردنا منه نصوصاً كثيرة في هذا البحث مع بعض التحليل وربط أجزاء مذهبه بصورة واضحة.

ويجدر التنبيه على أنّ هؤلاء الناقدين والمحلّلين أسندوا دعواهم بهذا النص خاصّة، مقرّين بأنّ تراث الملا صدرا في هذه المسألة يكاد يتّفق في إفادته انقطاع الألم عن أهل النار من الكفار، سواء كان في كتاب «**الأسفار العقلية**»، أو «**أسرار الآيات**»، أو «**تفسير القرآن**»، أو «**المبدأ والمعاد**»، أو غيرها من كتبه.

وسأكتفي بإيراد هذا النصّ، مكتفياً بالإشارة إليه، محيلاً تحليله على الباحثين والناقدين والمختصين بذلك، مكتفياً بغرضي في البحث من شيوع القول بانقلاب العذاب عذوبة في علماء مدرسة التصوف الفلسفي أو العرفاني ممثلة في مشهوريها كابن عربي والجيلي والبرزنجيّ وتابعيهم أو موافقيهم، وكصدرا من المنتسبين إلى المذهب الشيعي.

قال الملا صدرا في «**رسالة الحكمة العرشية**» بعد أنْ ذكر أشياء ونقل كلاماً لابن عربي من «**الفتوحات المكية**»: "وصاحب الفتوحات المكية أمعن في هذا الباب وبالغ فيه في ذلك الكتاب، وقال في الفصوص: وأمّا أهل النار فمآلهم إلى النعيم، إذ لا بدّ لصورة النار بعد انتهاء مدة العذاب أنْ تكون برداً وسلاماً على من فيها. وأما أنا فالذي لاح لي بما أنا مشتغل به من الرياضات العلمية والعملية أنّ دار الجحيم ليست بدار نعيم، وإنما هي موضع الآلام والمحن، وفيها العذاب الدائم، لكن آلامها متفننة متجددة على الاستمرار بلا انقطاع، والجلود فيها متبدلة، وليست هناك موضع راحة واطمئنان، لأنّ منزلتها من ذلك العالم منزلة عالم الكون والفساد من هذا العالم"(٣٩).

هذا ما قاله الملا صدرا، وقد علّق عليه محقّق الكتاب بقوله: "المصنف هنا فقط يعدل عمّا قرّره في سائر كتبه...، وعما قدمه في هذه القاعدة من مقدمات تنصّ على خلود الكافرين في النار

---

(٣٩) صدرا، **رسالة الحكمة العرشية**: ص١٩٥.

دون العذاب، كما هو رأي ابن عربي"[٤٠]، ولكني أتحفّظ على كلام محقق الكتاب من جهتين:

الأولى: أنّ التعبير الأدقّ عن مذهب ابن عربي وصدرا هو الخلود بدون الألم، لأنهما يقولان ببقاء صورة العذاب ولونه دون الألم، وإن كان مذهبهما بعيد التصور، فإنه يبعد تصور العذاب الذي هو للكافرين والملابس للسخط والمعاقبة بدون الألم.

الثانية: أنه ليس بالضرورة أن يكون عدول الملا صدرا عن انقطاع الألم عدولاً أيضاً عن المقدمات التي قدمها في كتابه، بل قد يقال –على التسليم بعدوله عن انقطاع الألم– إنه عدل عن تخريج هذه المسألة على تلك المقدمات والأصول الفلسفية، أو أنها تخريجها عليها غير مقطوع.

وكذلك أشار بعض الباحثين إلى تراجع الملا صدرا بالاستناد إلى هذا النصّ، وأشار في المقابل إلى أن بعض الباحثين رفض أن يكون هذا النص تراجعاً[٤١].

وذكر جلال الدين الآشتياني في تحليله لآراء ملا صدرا في كتاب شواهد الربوبية أن الأدلة التي استند إليها ملا صدرا وغيره تبعاً لأهل التحقيق، يريد ابن عربي، ليست قوية، بل هي خالية عن التحصيل، كما قال، بل وصف كلمات ابن عربي بأنها خطابية، وأن صدرا لم يأت بكلام مقبول في إثبات ما يعتقد به ابن عربي[٤٢].

ولقد سجّل جلال الدين الآشتياني تراجع صدرا عن هذا القول في تعليقاته على الشواهد الربوبية استناداً إلى نص العرشية نفسه، حيث قال: "والمصنف العلامة قد رجع عن هذا القول في رسالة العرشية التي صنفها بعد هذا الكتاب"[٤٣]، ثم قال الآشتياني: "ومما ذكرناه ظهر أن ما قيل في هذا المقام [انقطاع العذاب وصيرورته عذباً] تمويه وخيال في خبال، وما أنزل الله بها من سلطان، والمتبع في أمثال هذه المسائل نصوص الكتاب والسنة والبراهين العقلية لا الخطابات الذوقية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل"[٤٤].

وبعد هذا الموقف من الآشتياني المسبوق بموقف العلامة السبزواري والزنجاني الذي سقناه في ثنايا هذا البحث، وهي مواقف تستحق التقدير، إذ لم تنسق وراء كشوف وذوقيات لا معنى لها عند معارضة الكتاب والسنة.

---

(٤٠) صدرا، **رسالة الحكمة العرشية:** ص١٩٥.

(٤١) كاظم، محمد عبد الخالق، **الخلود في جهنم،** ط١، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، مطبعة أميران: ص٢٠٤-٢٠٦.

(٤٢) انظر مقدمة الآشتياني: صدرا، محمد بن إبراهيم (ت١٠٥٠هـ)، **الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية،** ط٢، حواشي ملا هادي سبزواري، (تعليق السيد جلال الدين الآشتياني)، المركز الجامعي للنشر، ١٩٨١م: ج١، ص٤٧-٤٨.

(٤٣) صدرا، **الشواهد الربوبية:** ج١، ص٣١٧.

(٤٤) صدرا، **الشواهد الربوبية:** ج١، ص٣١٧.

وأودّ أن أسجّل النقاط الآتية في هذا الموضوع:

- المدرسة العرفانية المعتمدة على مقولة الكشف والمعرفة التي تتجاوز ما وراء طور العقل هي الأساس في مسألة عذوبة العذاب، ولم تكن هذه المسألة معروفة قبل نشوء هذه المدرسة ممثّلة في أبرز مفكريها وهو الشيخ ابن عربي.
- العرفان الفلسفيّ وكشف العرفاء ليس متفقاً في هذه المسألة، حيث رأينا من خلال النصوص أنّ بعض أهل الكشف يقول بانقلاب النار جنة ونعيماً وخضرة بحيث تصير على التحقيق طبقة من طبقات الجنة، وهو ما لم يرتضه ابن عربي فيما يبدو، ولا الملا صدرا، فهم لا يوافقون على هذا الكشف، غاية ما عندهم انقطاع الألم وبقاء النار ناراً مع صورة العذاب.
- الملا صدرا نفسه مع استناده إلى مقولة الكشف وتأثره بابن عربي اعترض على رأي الشيخ ابن عربي، ناسباً إياه إلى الإيغال والإمعان والتجاوز في المسألة، وهو ما صرح به في الحكمة العرشية.
- اعتماد أقطاب العرفانيين من الفلاسفة على الكشف ليس اعتماداً مستقلاً، بل هو مؤسس على قواعد فلسفية وأفكار نظرية موضحة في كتب ابن عربي ومن نقل عنه من الموافقين له في هذه المسألة كصدرا.
- هناك اتجاهان للملا صدرا في المسألة، على الأقل بحسب الباحثين من الشيعة، أمّا الاتجاه الأبرز في كتبه، وهو الاتجاه المصحوب بالتعليل والتوضيح والاستشهاد بكلام العرفاء، فهو أنّ الألم ينقطع عن أهل النار، والاتجاه الثاني فهو عدم الانقطاع وهو ما في الحكمة العرشية.
- المحققون من العلماء في معظم الفرق الإسلامية في مسائل القيامة والمعاد والبعث والنشور والثواب والعقاب وما إلى تلك المسائل تابعون للكتاب والسنة، لأنها هي المخبرة عما هو كائن، وما سوى ذلك بمعزل، إلا أن يكون من العقل بعض الدلائل البرهانية في الاستدلالات على ما هو وفاق الكتاب والسنة.

[خاتمة]

أختم هذا البحث بنقل مطوّل من كتاب «الحكمة المتعالية»؛ يطلع فيه القارئ على أصول المسألة بصورة ملخصة، وفيه الإشارة إلى كثير مما أردنا التنبيه عليه، وفيه طمأنة لمن يشكّ في أنّ التعليل الفلسفي والقواعد الفلسفية هي أصل كل تعليلات واستدلالات من يقول بانقطاع ألم العذاب وانقلابه راحة وعذوبة على أهل النار.

فليتأمل القارئ الكريم هذا النصّ الآتي، وليتنبه إلى ارتباط عقيدة انقلاب العذاب عذوبة وغيرها من العقائد بعقيدة وحدة الوجود الفلسفية التي قد تشتبه ألفاظها على كثير ممن حرم توفيق الفهم مما يوقعه في ظلمات من الوهم بعضها فوق بعض، نسأل الله المعافاة والعفو والعافية، أقول: من شكّ في ذلك فليقرأ هذا النصّ على طوله، وهو ما نختم به نقولنا عن كتاب "الحكمة المتعالية" الذي عرفناك ما شكل الحكمة التي فيه، وموقعها البعيد من الحكمة الإلهية المودعة في القرآن الكريم والسنة النبوية بل المنافي لها، كما هو معلوم لدى كل منصف، يقول صدرا:

"واعلمْ أنّ البرهان والكشف متطابقان على أنّ الفيض الوجوديّ والقول الربانيّ والكلمة الوجودية نازل من الحقّ أحدياً غير متفرق تفرقاً خارجياً إلى الكرسيّ، ثم يتفرق فرقتين: فرقة إلى عالم الدنيا وعالم الشهادة، وفرقة إلى عالم الآخرة وعالم الغيب، وذلك كنهر واحد عظيم يجري مجتمعاً أجزاؤه على الاتصال، ثمّ ينقسم إلى نهرين، يجري أحدهما إلى جانب اليمين، وهو أشرف الجانبين وأنورهما وأقواهما، والآخر إلى جانب الشمال، وهو أخسّ الجانبين وأضعفهما وأظلمهما؛ فالسعداء من الناس هم أصحاب اليمين وأهل الآخرة، والأشقياء هم أصحاب الشمال وأهل الدنيا، وقد أشرنا سابقا إلى أنّ أهل الدنيا أهل النار، لأن حقيقة جهنم وآلامها إنما هي ناشئة من الدنيا وشهواتها، وقد سبق أيضا أنها ليست بدار مستقلة في الوجود، لأنّ الدار منحصرة في الدارين دار الأجسام الطبيعية الكائنة الفاسدة، ودار الأجسام الروحانية الحية بحياة ذاتية، وهي المتحدة مع الأرواح، وأما الفرق بين دار الدنيا ودار الجحيم هو أن النفوس الشقية ما دامت موجودة بحياتها الطبيعية كانت الدنيا دار نعيمها، وتنعمت بشهواتها كالدواب والأنعام، وإذا انتقلت عن هذه الحياة الطبيعية وانبعثت إلى الآخرة وكانت شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها التي هي الآلام بالحقيقة وخيراتها التي هي شرور في الآخرة، فانقلبت الدنيا نار جهنم في حقهم، وشهواتها حيات وعقارب متمكنة في صميم قلبهم، وطعامها وشرابها حميماً وزقوماً لهم، كل ذلك متصورة بصورها المطابقة لمعناها، متطلعة على أفئدة أهلها، فلم يزل يحترق قلوبهم ونفوسهم بنار الحسد والغضب والتكبر وغيرها، وجلودهم وأبدانهم بنار الطبيعة والشهوة، وتلذعهم وتلسعهم حيات الهيئات السوء وعقاربها، وهكذا إلى أن يشاء الله، فظهر أنّ الدار داران والدنيا والجحيم في حكم دار واحدة.

إذا تقرر هذا؛ فنقول: إن العرفاء وأهل التصوف اصطلح عندهم في التعبير عن نزول

فيض الوجود عنه تعالى إلى هذا العالم وعالم الآخرة بتدلّي القدمين منه تعالى على سبيل التمثيل كما عبروا عن صفتي الجمال والجلال وملائكة العقل والنفس باليدين لله تعالى، لأنهما واسطتا جوده وعطائه وهذه الإطلاقات والاصطلاحات منهم موافقة للكتاب والسنة(٤٥)، كما هو عادتهم(٤٦)، قال الشيخ العربي في الباب الرابع والسبعين وثلاثمائة: فتدلّت إلى الكرسي القدمان حتى انقسمت فيه الكلمة الروحانية، فإنّ الكرسيّ نفسه به ظهرت، فقسمت الكلمة، لأنه الثاني بعد العرش المحيط من صور الأجسام الطاهرة في الأصل والجوهر، وهما شكلان في الجسم الكلي الطبيعي، فتدلت إليه القدمان، فاستقرّت كل قدم في مكان، يسمى المكان الواحد جهنّماً، والآخر جنّة، وليس بعدهما مكان ينتقل إليه هاتان القدمان، وهاتان لا تستمدّان إلا من الأصل الذي ظهرتا منه، وهو الرحمن المستوي على العرش، فلا يعطيان إلا الرحمة، فإنّ النهاية ترجع إلى البداية بالحكمة، غير أنّ بين البداية والنهاية طريقاً، وإلا ما كان بدء ولا نهاية، فكان سفر للأمر النازل بينهن، والسفر مظنة التعب والشقاء، فهذا هو سبب ظهور ما ظهر دنيا وآخرة وبرزخاً من الشقاء، وعند انتهاء الاستقرار تلقى عصى التيار(٤٧)، وتقع الراحة في دار القرار" انتهى بطوله(٤٨)، ومن أراد المزيد فليراجعه، فإنه واجد مزيد إيضاح وعرض لطريقة تفكير هؤلاء في مسائل الغيبيات التي هي من قبيل البعث والنشور والحساب والعقاب والجنة والنار وغير ذلك.

وإنما تعمّدت نقل هذا الكلام بطوله لما فيه من تذكير بمعنى الجنة والنار، وكيفية القرار فيهما آخراً، ولما في هذا النقل من تصريح بمباني عقيدة وحدة الوجود الفلسفية، وارتباطها بقواعد الفلسفة المعروفة، ولما فيه من مظاهر تأثر الملا صدرا بالشيخ ابن عربي في فتوحاته خاصة، وتصريحه بكيفية انقلاب العذاب راحة، وكيفية إيراد حجة الكشف والإلهام وأصولها الفلسفية، وعلاقة التصوف الفلسفي بمثل هذه المسائل، إلى غيرها من المسائل التي تظهر لقارئ هذا النصّ المعتني بالمسألة التي نوردها بأدنى تأمل.

وبالجملة؛ فقد استغنيت عن خاتمتي بكلامه، وأدمجت مرادي في مرامه، ولولا أن أشقّ على القارئ لنقلت من هذا الموضع السابق صفحات، فليراجعها من أراد الوقوف على ما قررناه عنه بعبارته هو.

ولنكتف بهذا القدر من العرض لمذهب الملا صدرا في مسألتنا المقصودة، معرضين في هذا الحال عن نقد ما فيه من المباني الفلسفية والتوجيهات المتعسفة لآيات القرآن الكريم، والمحاولة الشاذّة في تطبيق الاصطلاحات الفلسفية على ألفاظ الشريعة المطهرة عن شوب الفلسفة، لأنّ ذلك

---

(٤٥) هيهات، ثم هيهات.

(٤٦) هيهات لهذه أيضاً.

(٤٧) لعلّها التسيار، أي المسير والارتحال.

(٤٨) صدرا، **الحكمة المتعالية:** ج٩، ص٣٥٥-٣٥٧.

شغل آخر، قد يطول ويصعب ويتعب، خصوصاً مع قلة الإنصاف في هذا الزمان، وكثرة الاشتغال وقلّة الأعوان، مقتصرين على ظهور مخالفة هذه المسالك لما هو معلوم من الكتاب والسنة اللذين هما قيد كلّ سني متشرّع، كما صحّ لفظاً ومعنى عن العلماء الربانيين، خصوصاً أرباب هذه الطائفة السنية الكريمة كسيد الطائفتين الجنيد قدس سره الشريف، وغيره من الأولياء البررة رضوان الله عليهم. وبالله التوفيق.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه:

راجي حسن الختام

جاد الله بسام

ليلة ٢٣ رمضان المبارك ١٤٤١ هـ

١٦ أيار ٢٠٢٠م

"إنّ العهد كان مسؤولاً"